تأجيل الحوار الفلسطيني

الدكتور عبد الستار قاسم

5/شباط/ 2003

الحوار بين الناس عبارة عن ظاهرة إيجابية ومن المفروض أن تسود في محاولاتهم لحل المشاكل أو للوصول إلى الرأي الأمثل بخصوص القضايا المطروحة. ومن الأولى أن يتبنى الفلسطينيون هذه الظاهرة بسبب قضاياهم المعقدة والتي تتطلب تضافر جهود كل الفصائل والجماعات والأشخاص. لقد غاب الحوار عن الساحة الفلسطينية فترات طويلة من الزمن وأخذ التفرد مجالا واسعا وضع الشعب الفلسطيني وقضيته في مآزق متواصلة. وعلى الرغم من أن المستوى الشعبي لم يتفاعل مع هذا الحوار إلا أن المهتمين أبدوا تفاؤلا وعبروا عن تمنياتهم بالنجاح. لم يفض الحوار حتى الآن عن نتائج تتناسب مع التمنيات، إلا أن الاستمرار فيه قد يؤدي إلى إيجابيات ولو متواضعة.

من الملاحظ تاريخيا أن قيادة منظمة التحرير الفلسطينية أو السلطة واللتين يمثلهما السيد ياسر عرفات لا تملك الرغبة في جمع الفلسطينيين، وهي عادة تلجأ إلى شعار الوحدة الوطنية والأخوة عندما ترى أن مصلحة القائد تقتضي ذلك. منذ عشرات السنين والفصائل الفلسطينية تحاول إقناع السيد عرفات بضرورة أن تكون القيادة جماعية وأن يكون هناك إشراف عام على الأموال الفلسطينية، إلا أنه رفض باستمرار وكان يكتفي بتخصيص أموال للفصائل التي لا تتمرد على أسلوبه في الإدارة وعلى مبادراته السياسية. وإذا كانت تجري بعض الحوارات بين الحين والآخر بين الفصائل فذلك لأن القيادة كانت تمر بمآزق تتطلب حشد القوى. وعادة كانت القيادة تدير ظهرها بمجرد زوال الأسباب الطارئة. فهل سيكون الأمر مختلفا هذه المرة؟ لا أظن ذلك، لكن لندعو الله أنني مخطئ.

إنه من المؤكد أن سلطة السيد عرفات لن يُسمح لها بالعودة إلى ممارسة نشاطاتها التي اعتاد عليها الشعب الفلسطيني إلا إذا أثبتت قدرتها على مواجهة المقاومين الفلسطينيين من مختلف التنظيمات والتي تعكس نواياها "الصادقة" حسب تقويم الأمريكيين والإسرائيليين. المفتاح إلى ذلك هو إقناع حماس بالعزوف عن القيام بعمليات مقاومة ولو مؤقتا وبصمتها عن إي عمليات اعتقال يمكن أن تقوم بها السلطة إلا من إصدار بيانات الشجب والاستنكار. التقدير هنا واضح وهو أنه إذا توقفت حماس عن العمل المقاوم فإن الفئات الأخرى ستتوقف أيضا. هذا ما يصف الأرضية التي من المفروض أنها تحمل الحوار الفلسطيني. لقد صرح عدد من المسؤولين الفلسطينيين أنهم يمهدون لحوار يجعل من الممكن الاستمرار بالمشروع الوطني الفلسطيني. هذا المشروع هو ذاك الذي بدأ بالتفاوض مع إسرائيل والذي أثقل السلطة الفلسطينية والشعب الفلسطيني بالطلبات الإسرائيلية بخاصة الأمنية منها. ومن يريد أن يكمل المشوار الذي بدأ في مدريد لا بد أنه سيعود إلى اعتقال فلسطينيين وخنق المقاومة الفلسطينية.

البعد الدولي واضح في الحوار الذي جرى في القاهرة من حيث أن مصر سمحت لقادة حماس بدخول أراضيها كما سمحت بحالات سابقة مشابهة، وتلقف الإسرائيليون والأمريكيون الخبر بشغف وفي انتظار النتائج. أمريكا تريد منطقة هادئة من أجل التفرغ للعدوان على العراق، وإسرائيل تريد هدوءا من أجل تحسين وضعها الأمني كما أرادتها من أجل انتخاباتها أيضا. أما

السلطة الفلسطينية فقد خسرت الكثير على صعيد نهب أموال الشعب الفلسطيني وعلى صعيد تثبيت هيبتها. وربما ترى هي أيضا أن في الهدوء فرصة لإجراء الانتخابات التي يظن السيد عرفات أنه سيكسبها.

فهل ستقبل حماس بحوار يلبي المتطلبات الإسرائيلية والأمريكية والفسادية؟ حماس لن تقبل من الناحية المبدأية التخلي عن العمل المقاوم لأن ذلك يخالف ميثاق حماس القائم على الجهاد ويؤثر سلبا على شعبيتها داخل فلسطين وخارجها. ربما تقبل حماس فكرة التوقف عن القيام بعمليات عسكرية لفترة محدودة وذلك من قبيل إعطاء السلطة فرصة لتحقيق ما وعدت الشعب الفلسطيني بتحقيقه. وحقيقة يسلب قبول حماس لفكرة التخلي عن المقاومة وجودها من مضمونه ويزيل مبرر بقائها. أما بالنسبة للحركات الأخرى فقد سبق أن توقفت حماس عن القيام بأعمال عسكرية وذلك من قبيل فتح المجال أمام السلطة إلا أن شهداء الأقصى الفتحاويين لم يتوقفوا واستمروا بعملياتهم.

لكن السؤال الأكبر الذي لا بد أن تطرحه حماس أمام السلطة يتعلق حول الموقف الإسرائيلي فيما إذا أوقفت عملياتها. هل تستطيع السلطة أو أمريكا إقناع إسرائيل بالتوقف عن عملياتها ضد المجاهدين والمقاومين والقادة الفلسطينيين؟ وهل تستطيع السلطة الدفاع عن الأمن الفلسطيني إذا سكتت باقي التنظيمات؟ ثبت مع الزمن أن السلطة لا تستطيع القيام بأي من هذين الأمرين. هي تريد الصمت الفلسطيني مقابل لا شيء.

أما فكرة الوحدة الوطنية فهي ليست لب الحوار. الوحدة الوطنية الفلسطينية على المستوى السياسي مستحيلة ما دام عرفات على قمة هذا الشعب ذلك لأنه لا يؤمن إلا بذاته وثبت أن كل دعواته للوحدة لم تكن إلا مجرد شعار استهلاكي. تتبلور على الساحة الفلسطينية أحيانا وحدة ميدانية، لكن القرار يبقى بيد شخص واحد يعرف كل شيء. ويبقى شعار الوحدة الوطنية مادة خطابية يصر عليها الخطباء وقادة الفصائل. تقول مصادر المعارضة أن كل القضايا التي تحظى بالاهتمام مطروحة على الطاولة وأن فصائل المعارضة لا تقبل حصر الحوار بقضية أمن إسرائيل. هذا صحيح لكنه لا يغير من الحقيقة شيئا وهي أنه لو لم يكن الأمر خاصا بأمن إسرائيل لما حصل الحوار.

مآخذ على المعارضة

طرح الداعون إلى الحوار فكرة ترتيب أوضاع البيت الفلسطيني ومنظمة التحرير الفلسطينية. وقد رددت مصادر المعارضة أنها تذهب إلى الحوار من هذا المنطلق وهي تصر على إصلاحات جذرية في منظمة التحرير. هذا ادعاء لا يعبر عن الحقيقة لأن المعارضة كانت دائما ترفض التنسيق فيما بينها وتستجيب لدعوة السلطة للحوار. بمعنى أن المعارضة لا تجتمع إلا على طاولة عرفات. وأيضا يصعب الأخذ بكلام المعارضة لأنها لا تصر على ترتيبات مسبقة من أجل فتح حوار. وهذا ما يجعل المراقب يقدر أن عرفات يستخدم المعارضة في الوقت الذي يراه مناسبا، وهي لا ترى ضيرا في ذلك.

سبق أن جرت محاولات كثيرة جدا داخل فلسطين وخارجها من أجل لم شعث المعارضة وجمعها ضمن برنامج واحد يشكل بديلا لبرنامج أوسلو إلا أنها فشلت. المعارضة تنتقد عرفات والسلطة

وترفض أوسلو لكنها لم تقدم للشعب الفلسطيني عنوانا آخر ينافس السلطة الفلسطينية ويستقطب الناس حوله. كانت تجلس فصائل المعارضة من أجل إصدار بيان لكنها لم تكن تجلس لصياغة برنامجها الخاص لتقول للشعب الفلسطيني أن أوسلو ليس الطريق الوحيد. حتى أن هذه الفصائل كانت ترفض أحيانا الاجتماع لكنها كانت تسارع لتلبية دعوة رئيس السلطة للحوار كما حصل عام 1996 وحصل الآن في القاهرة.

ثم أن المعارضة تقبل بحوار تحت مظلة رئيس مخابرات عربي متجاهلة بذلك سوء سمعة أجهزة المخابرات لدى الشعب العربي وكراهية الشعب الفلسطيني لمختلف الأجهزة الأمنية. ولماذا تنسى فصائل المعارضة أن العرب حشدوا بالتعاون مع أمريكا أكثر من ثلاثين دولة في شرم الشيخ لمقاومة يحيى عياش رحمه الله؟ ألا كان يجدر بالفصائل أن تصر على رعاية مدنية للحوار بدل الرعاية الأمنية؟ الرعاية الأمنية مثيرة للشكوك والهواجس.

ذهبت فصائل المعارضة إلى الحوار بدون الشعب الفلسطيني غير مختلفة في ذلك عن القادة العرب الذين لا يلتفتون إلى الشعوب. كان من الأولى أن تطرح المعارضة فكرة الحوار جماهيريا لكي تتفاعل مما يساعد في اتخاذ القرار السليم. ذهب المتحاورون إلى القاهرة غير عابئين برأي الناس، ودار الحوار دون اكتراث الجمهور. لقد تصرفت المعارضة كما تتصرف السلطة أو أي حكومة عربية. تنتقد المعارضة السلطة الفلسطينية في أنها لا تأخذ برأي الناس ولا تفتح الباب أمام الآراء المختلفة، لكنها هي ذاتها تناست أن هناك جماهيرا فلسطينية يجب أن يكون لها رأي في كل ما يتعلق بمستقبلها. لم نر دعوات فصائلية لعقد محاضرات وندوات ولخوض نقاش حول الموضوع، بل رأينا زحاما فصائليا للسفر إلى القاهرة.

أما الحوار فيمسني شخصيا كشخص ينوي ترشيح نفسه لانتخابات الرئاسة إن جرت. الحوار يؤثر سلبا على حملتي الانتخابية من حيث أنه يحسن صورة الطرف الآخر. إذا كان التيار الإسلامي وبعد كل هذه التجارب لا تمانع بمحاورة أشخاص منتدبين عن رئيس السلطة فمعنى ذلك أن الخير فيهم وفي رئيسهم. أظن أن التيار الإسلامي بصورة عامة يحتاج إلى حنكة سياسية متناسبة مع أدائه العسكري، وإلى قدرة أفضل على صنع الأصدقاء.

لكي ينجح الحوار

حتى ينجح الحوار الفلسطيني أمامنا التالي:

1- من المهم أن ينبع الحوار من إرادة شعبية وأن تجري وفق رغبات شعبية محددة علميا. من المفروض التوقف عن التعامل مع الشعب الفلسطيني بروح التهميش.
2- أن يكون لدى السيد عرفات النية المبرهن عليها عمليا بإقامة قيادة جماعية مسؤولة ويمكن محاسبتها ومقاضاتها، وأن يقبل برقابة صارمة على الأموال الفلسطينية وطرف صرفها، وأن يوافق على إعادة ترتيب منظمة التحرير الفلسطينية بحيث تصبح ممثلة للشعب الفلسطيني.
3- أن يكون الحافز نحو الحوار فلسطينيا لأهداف فلسطينية.
4- أن تذهب المعارضة إلى الحوار برؤية واضحة وليس بأفكار متناثرة.

وإلا ستبقى الحلقة مفرغة لا تجد من يملأها.